ماذا يخبئ المستقبل

بقلم الكولونيل شربل بركات

التغيرات الشرق أوسطية الحالية تضع تساؤلات كبرى قد تطيح "بالركائز" التي كانت قائمة حتى الآن ومقبولة كشبه مسلمات من الأطراف الكبرى في المنطقة وخارجها. فقد فرضت سوريا احتلالها للبنان بأكمله بعد حربين أخرجتا اللاعب المسيحي الذي مثل دائماً العقبة الكبرى في طريقها، وبارك بقية اللاعبين ذلك. فالغرب الذي كان يطمع "بحماية منابع النفط" أراد سوريا جزءً من التحالف ضد العراق، بدل أن تكون إحدى العقبات. وإسرائيل التي غضت الطرف عن تمدد سوريا داخل لبنان أملت بأن تكون هذه عنصراً يسهّل عملية السلام في حال عدم التعرض "لمصالحها في لبنان". أما الباقون من العرب فقد قبلوا الدخول في عملية السلام من خلال "مدريد" والتعهّد بفتح الحدود وتطبيع العلاقات مع إسرائيل على أساس "السلام مقابل الأرض". وبدا بأن كل شيء يسير نحو مستقبل نيّر للشرق الأوسط تقوم فيه ورشة سلام واعمار ومشاريع سوف تجعله محط الأنظار ومركز الاستثمار العالمي. وحتى عرفات أجرى حواراً سرياً مع إسرائيل خرج منه رئيساً لدولة "فلسطين المزعومة".

وهكذا استقرت المقاييس على حل الموضوع الإسرائيلي–الفلسطيني بإنشاء دولة فلسطين من الأراضي التي كانت تحتلها إسرائيل منذ ١٩٦٧ وأما على الجانب اللبناني فقد دارت الطروحات حول تنفيذ القرار الدولي ٤٢٥ كونه لا مشكلة أرض بين لبنان وإسرائيل. وكان محور الحوار مع السوريين إعادة الجولان مقابل السلام.

لكن العقبات التي نبتت على طريق الحل خلال السنين الماضية تكاد تطيح بعملية السلام ومنجزاتها. فها هو لبنان الذي كان يبدو الحلقة الأبسط في الموضوع والذي لا مشكلة حول خروج إسرائيل منه، يصوّر هذا الخروج على أنه انكسار لإسرائيل ويستعمل في ذلك ما يسميه "مقاومة" تستند على طروحات "إسلامية" متطرفة أخذت تثير داخل الفلسطينيين خاصة والشارع العربي عامة نوعاً من الحماسة جعلت عرفات يترك غصن الزيتون ويتسلح "بثورة الحجارة". وسوريا التي كان الجميع يتأمل أن تكون من يجمع المتطرفين لتلجمهم عند وضع الحلول، تقف وراء "حزب الله" في لبنان وتؤيد "حماس" في فلسطين وترفض التفاوض حول الشاطئ الشرقي لطبريا، وهي تقود نظرية "السلام بدون التطبيع"، وكأن إسرائيل تستجدي سلاماً تعيد فيه الأرض وتبقى رهينة بدون سلاح وحروب ولكن بدون عمل وانتاج يسورها حائط من الحقد وعدم التعاطي. وقد بدأ العرب المعتدلون بعدما أخذت اللعبة تدور حول المقدسات وخاصة "الصخرة والهيكل"، يتناسون أحلام السلام ليدعموا " حرب الأطفال".

ثم ظهر تطور جديد على الساحة الإسرائيلية، فلأول مرة منذ قيامها، قام عرب إسرائيل بالتظاهر وقطع الطرق في داخل إسرائيل ما جعل الشارع اليهودي يتذكر "حرب الاستقلال" "فيسقط براك" وينادي على "شارون" ليعيد هيبة إسرائيل إلى ساحة الشرق الأوسط.

ولكن ماذا يستطيع "شارون" أن يفعل؟

في زمن المتغيرات هذا وإذا ما سقطت "شبه الثوابت" التي كنا اعتدنا عليها فإن أمام "شارون" الكثير للعمل وأمام العري أكثر للتوقع. فالعراق عاد إلى الساحة الفلسطينية يتحضر "لضرب" إسرائيل، وسوريا لم تسمح للحكم اللبناني بإغلاق جبهة الجنوب ولو أن إسرائيل قد نفذت كل الطلبات اللبنانية حتى المذلة منها. والفلسطينيون أوصلوا موضوع القدس إلى الحائط المسدود. والإرهاب يدق أبواب الولايات المتحدة في اليمن وفي مواضع أخرى من العالم. وقد وصل برميل النفط إلى أعلى أسعاره. وفي سوريا نفسها التي فقدت زعيمها القوي لا تزال سلطة ولده غير مستقرة. والشارع اليهودي الذي كان مستعداً لتقبل التنازلات طمعاً بالسلم ها هو يهاب الموقف ويخشى، ليس فقط على المستعمرات في الضفة الغربية والجولان، بل على ركائز الدولة واستقرارها. وها هو مثل لبنان حاضر أمامه.

في هذا الجو السائد يقترب الإسرائيليون والعرب من الصدام الشامل مرة أخرى. فهل يكون "شارون" القادر على إعادة هيبة إسرائيل قادر أيضاً على فرض السلام؟ أم أن السلام أمنية بعيدة جداً قد لا نعود نجرؤ على الحلم بها مع "شارون" أو بدونه، لأن العرب والإسرائيليون، قد تربوا على ثقافة الحرب والحقد والخوف والتحسب، وليس من السهل أبداً إقناع أي منهما على التخلي عن حساباته ولا عن نظرته تجاه الآخر؟

فأي مستقبل يخبأ لنا في الشرق الأوسط؟ وهل تكون الأحداث الآتية هي آخر الحروب، أم أول الخطوات نحو سلام حقيقي؟